الفصل السابع والعشرون

العنقاء الصقر

أغنية الباز داز

انهض يا أخي

دعنا نذهب للصيد مع السلوقيات الجائعة

ضع الصقر الجريء على قبعتي المكسوة بالقفاز

أحضر كلاب الصيد المربوطة.

وأسرج ذلولي الرائع

واربط فرسي السريعة إلى حزام الشداد.

تلك الفرس الأصيلة.

دعنا نركب ثانية.

مع بنات دمنا

مع قطعاننا المتجولة وقبيلتنا

مع زعيم قبيلتنا

وأصدقائنا الأعزاء

إننا نركب اليوم مع الأغنية البهيجة

إلى البرية المضيافة

وكلاب الصيد تصحبنا بصوت مسرور

والفرس بصهيلها المتكرر

لَنْ أكِلَّ أبداً من مراقبة الطيران الرائع للصقر المختال.

عندما يتنكب الريح

وكيف تنظر عيناه الذهبيتان

الفريسة التي ستمسك بها مخالبه القوية.

وصلت طلائع حرس الرولة المهاجرين إلى منطقة البرك المطرية في خربة مرفيا، التي حمل المراسلون الأخبار منها عن العواصف الرعدية، ولذلك كان من الطبيعي أن نتوقع في تلك المنطقة وجود القنص بأعداد كبيرة. وقام الأمير فواز بالترتيبات الفورية لرحلة صيد عظيمة مع صقوره وكلابه.

ولمدة يومين قبل رحلة الصيد لم يقدم للصقور والكلاب أي طعام. وبدت الكلاب النحيلة الجائعة المستلقية بين سيقان الجمال أنحف من المعتاد، وتذمرت الصقور الجائعة تصيح بصوت مرتفع وقلق كلما مرّ بقربها أحد. وغماها العبيد الآن بأغطية صغيرة حمراء أو زرقاء أو سوداء أوخضراء. هذه الأغطية الجلدية الجميلة مزينة بخيوط فضية وذهبية.

في صباح اليوم الموعود عندما تجمع الصيادون ركب الأمير فواز فرسه الحربية. وكشف أحد عبيده دوغان عن صقره المفضل. وصاح فواز بالصقر على بعد ستين خطوة فاستعد الطائر بعد أن عرف صوت سيده. وحرّر دوغان الصقر

من قيده الذي أمسك به بيده التي ترتدي القفاز، فارتفع الطائر على الفور وطار كالسهم إلى الأمير وحطّ على ذراعه الممدودة ثم غمّى فواز الصقر ثانية.

قال الأمير فواز: «هذا هو العنقا ـ الشهاب. إنه ينقض من الأجواء العليا ويقتل خصمه أثناء انقضاضه. يستطيع الطيران في الأجواء العليا بنفس الاطمئنان الذي ينزلق فيه فوق سطح الأرض. سترى اليوم ما يستطيع العنقا أن يفعل».

وانطلقنا بإشارة من الأمير فواز. وصاح «السوّاطون» على الكلاب بأسمائها «شلّة، سطحة، طرفة، الخ. وحرّرت الكلاب من قيودها عندما تخطينا آخر خيمة، ولم يعد هناك خطر من أن تهاجم الكلاب الذئبية وكلاب الحراسة وكلاب الرعاة كلاب الصيد النحيلة وتمزقها إرباً إرباً.

وحمل اثنا عشر عبداً من عبيد الأمير صقور الصيد المغمّاة والمغطاة كالمعتاد. كما حمل أقارب الأمير ووجهاء الرولة صقورهم على أفراسهم، بعضها محمول على معاصم الرجال المرتدية القفاز، وبعضها ـ في الحقيقة معظمها ـ محمول على جلود الخراف المفروشة على عجز الخيول، كالعادة عندما يذهب البدوي للقنص.

اشتملت فصيلة مثيري الطرائد على أكثر من ثلاث مئة راكب جمل، وحوالي مئتي راكب فرس، وبدأت تنتشر يميناً ويساراً لتحاصر الطرائد وتدفعها نحو مركز صفنا. وجرت جيادنا المحاطة بكلاب الصيد فوق السهل الفسيح في جو الصباح المنعش. وخفقت قلوبنا من الانفعال. إنه سيكون يوماً سعيداً ومحظوظاً كما تنبأ كلّ عرّاف استشاره فواز خلال الأيام الماضية.

وجرى الأمير الشاب بجانبي، وعلى قبضته المرفوعة جلست العنقا بغطائها الجلدي الأحمر المطرز بالخيوط الذهبية، وفي قمته لؤلؤة جميلة. وبدلاً من العينين تبرق على الجانبين زمردتان ثمينتان. صاح فارس قائلاً: «إنني أحب نبيذ الحرب ولكن كم أحب أن أشرب أيضاً حليب القنص. أليس الصيد أخاً للحرب والطريدة فارساً مجندلاً؟».

شدّ العنان وشددت عنان فرسي أيضاً لكي ندع مجموعة الصيادين تتجاوزنا. إنها مجموعة فرسان رائعة على ظهور الجياد والجمال والصقور متوازنة (وأجنحتها ممتدة) على معاصم الفرسان وأعجاز الجياد الجارية. العباءات وأعراف الجياد والذيول والضفائر والكوفيات وجلل السُّروج والحواشي والشرابات المتطايرة في الهواء. وامتزج صراخ الرجال بهدير الحوافر وصهيل الأفراس وصيحات الصقور ونباح الكلاب.

وجريت مع الأمير فواز ركبة بركبة. ولمحت العيون الحادة مالك الحزين يحلق أكثر فأكثر إلى الجو على الرغم من أن مالك الحزين قلما يُرى في هذه المنطقة من الجزيرة العربية. ربما كان هذا الطائر في طريقه إلى مستنقعات جنوب العراق. وأضحى الأمير كله انفعال فصدرت عنه صيحات قوية وصاح بنشوة: «يا عيني! يا خطّافي ها هي طريدتك!» وأثناء جريه حاول بأصابع مرتجفة إزاحة غطاء الطائر وقيده وأضاف: «يا لمحة البرق! يا سيف السماء!».

كان الأمير مغرماً جداً بهذا الصقر. إنه صقر في طرح ريشه الخامس، وهدية من ابن خليفة شيخ البحرين الذي حصل عليه من بدو جبل شمّر مقابل فرس ثمينة. وبعد نزع الغطاء والقيد هزّ فواز العنقا إلى الأعلى والأسفل على معصمه ثم إلى الجانبين. وصاح به: «افتح جناحيك السريعين». وبخفقات متراخية من جناحيه وصيحات قعقعاته ارتفع الطائر في الجو. وشددنا الأعنة غريزياً نريد مراقبة المشهد. في البداية اندفع الطائر نحو الأعلى ولكن بعد فترة انقضّ وطار مسافة طويلة فوق الأرض دون أن يبدو عليه أنه يعير أي اهتمام لمالك الحزين.

لم يكن بوسع المرء سوى الافتراض أن الطائر استمتع بامتداد طيرانه وانزلاقه ودورانه قرب سطح الأرض. وبعدئذ حلّق العنقا باندفاعة جريئة وحركات لولبية واسعة أكثر فأكثر إلى الجو. وبخفقات قصيرة نشيطة من أجنحته طار فوق مالك الحزين وتجاوزه. وفجأة استدار العنقا وبجناحين مطويين انقضّ على الطائر الكبير، وانطلق بجانبه بانحرافة سريعة واستخدم سرعة انقضاضه لتحليقٍ آخر

أوصله إلى وجه الريح وموقع أعلى وأكثر فائدة. وهنا قام بعدة دورات وراقب لفترة من الوقت ثم استقر في نقطة واحدة دون حراك كنجم في السماء.

راقب فواز طائره المدلل وصاح بسرور: «الآن سترى مالك الحزين يسقط بين مخالبه كما تسقط السمكة في شبكة الصياد».

واستمر استقرار عنقا الساكن في السماء. هل كان يختار أفضل مسار لانقضاضه القاتل؟ وفجأة خفق بجناحيه مرة واحدة وانقضّ بجناحين مطويين وساقين مضغوطين قرب جسمه، واندفع بسرعة هائلة نحو الأسفل كالقذيفة. ومع ذلك رأى مالك الحزين الاندفاعة في الوقت المناسب لقياس سرعته والهروب بجناحين يخفقان بسرعة. وفي الحال خفف الصقر من اندفاعته، وبحركة لا تكاد ترى من جناحيه غيّر اتجاهه، وفي الحال بدأ الصقر يصيح في إثر مالك الحزين. وأخيراً حرّر نفسه من جناحي مالك الحزين الخطير وسدّد الضربة القاتلة من مخالبه التي تشبه السكين. ولا يستطيع تحرير نفسه في اللحظة المناسبة سوى الصقر الخبير بالصيد.

وارتفع الصقر الذكي ثانية في الهواء بينما جسم الضحية يسقط على الأرض بصوت مكتوم. ثم صرخ ظافراً فوق عدوه المجندل واستدار نحو الأعلى كَنَافُورةٍ مستقيمة ليعود إلينا بدورة رشيقة. صفرت الريح في ريشه عندما انقضّ قرب رؤوسنا. وصاح فواز بسرور مخاطباً صقره: «عنقا أيها الشهاب: يا خطّاف! يا عيني!» بدأ الصقر العريض الصدر الملطخ بالدم يسجع بسرور كما لو أنه فهم مديح سيده. وبمخالب ممدودة وريش منتشر حطّ برقة على قبعة سيده المرفوعة، وعندها أخذ فواز يلمس برقة ريشه المنفوش. وكما لو كان الطائر سكرانَ بالدماء أخذ يتمايل ثم نفش ريشه وصقله ثانية، ونظر بعينيه السوداوين المحاطتين باللون الذهبي والحاجبين الرماديين. إن العنقا مخلوق شيطاني ولص حقيقي، ولكن تاج البز درة بين الرولة يعود إليه بلا أدنى ريب.

ومقابل اشتباكه الجوي الرائع كافأه العبيد بطيهوج حيّ كان أحدهم قد أمسك به. قتل الصقر الفريسة بتمزيق حنجرتها ثم انتزع الجناح والتهمه حتى

يصل إلى الرئتين والقلب، ثم مزّق وأكل أقوى عضلات الصدر وترك الباقي دون أن يلمسه.

وجرى أحد الفرسان نحو سلوقيين يجران مالك الحزين الميت وأخذه منهما ثم انتزع ريشات التاج الجميلة وقدمها للأمير فواز.

في هذه الأثناء كان المثيرون يحفّلون الأرانب الوحشية والطرائد الصغيرة الأخرى. لم تكن الصقور المستعملة لمثل هذه الطرائد الصغيرة من صنف العنقا الممتاز. فالأرانب الوحشية التي بدت يائسة توفرت لديها وسيلة للدفاع خطيرة على مهاجميها في الأرض التي تستطيع الالتصاق بها والتي يمكن أن تنحني عليها بسرعة. أحد هذه الصقور دقّ عنقه لأنه انقض إلى مستوى منخفض، وأعطب آخر جناحيه لدرجة أنه لم يتمكن بعدها من الطيران. ولكن على الرغم من ذلك كله كانت معظم الصقور على درجة من الذكاء كافية لقتل الأرانب بغرس مخالبها من بين أضلاعها إلى الرئتين. وبعد كل قنص يضطر الصيادون إلى الإسراع ورمي عباءة فوق الصقر لمنعه من أكل فريسته قبل ذبحها بالطريقة الشرعية للذبح لأن اللحم الذي لم يخرج منه الدم محرّم على الإنسان أكله.

كما أن الكلاب أطلقت في إثر الأرانب أيضاً ولكن زوجياً: أحد الكلبين يطارد بينما يقاطع الآخر هروب الأرنب في اتجاه آخر. ولكن اصطياد الأرنب لم يكن عملاً سهلاً، وقد يضطر الكثير من الكلاب للقفز في الهواء عندما يستدير الأرنب فجأة.

* * *